بين الرجل والمرأة

سهير عوض

مؤسسة يسطرون للطباعة والنشر والتوزيع

يسطرون
للطباعة والنشر والتوزيع

رئيس مجلس الإدارة

عماد سالم

المدير العام

أحمد فؤاد الهادى

مدير الإنتاج

أحمد عبد الحليم

الطبعة الأولى
الكتاب : بين الرجل والمرأة
المؤلفه : سهير عوض
تصنيف الكتاب : مجموعة قصصية
تصميم وإخراج : أحمد عبد الحليم
المقاس ١٤ × ٢٠
رقم الإيداع : ٢٠٨٧٠ / ٢٠١٧
الترقيم الدولى : 978 - 977 - 776 - 499 - 5

العنوان : المكتبة والمطبعة : ٣ ش صفوت - محطة المطبعة شارع الملك فيصل - الجيزة
التليفون : ٠١٢٢٩٣٠٠٠٢٩ - ٠١١٥٧٧٦٠٠٥٢
Email : yastoron@gmail.com
موقعنا على الفيس بوك : مؤسسة يسطرون لطباعة وتوزيع الكتب
جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

إهداء

إلى نبع الحنان

أختي الكبيرة

د. مديحة الجارحي

سهير عوض الجارحي

مقدمة

لحظات الإرهاف فى نفوسنا شُعَل برق تسطع لتزيح ظلمة الكون من حولنا.. والدموع قطرات ندي تغسل شوائب الكدر من صدورنا.. والكون ليس برقاً يبدد الظلمة.. أو ندي يغسل الشوائب.. والحياة ليست كلها إرهافاً.. وليست كلها دموعاً.. الحياة أحداث تدفعها رياح هوج.. تحمل أسباب الإرهاف والتبلد.. والاهتمام.. واللامبالاة.. والإعجاب والسخرية.. والحزن.. والضحك.. فى لحظة تدفع إلينا بالمأساة وفى اللحظة الأخرى تلهينا عنها.. تُسيل الدموع بهبة.. وتجففه بالهبة التالية.. والدموع عندما تُسيلها أمسية حزينة فى لحظات حس مرهف.. ونفس تهفو إلى الكلمة الرقيقة والضمة الحانية.. يجففها الصباح ليس لأنه يملك يداً رقيقة أو صدراً حنوناً.. لكن لأن زحمة الحياة فيه لا تترك أحياناً كثيرة فرصة لدمعة تسيل.. أو نفساً ترهف..

وفى هذه الكلمات أحاول أن أستثير الدموع لتسيل.. ربما تغسل آلام النفوس.. وأترك الكلمات تتدفق لتعبر عن المكنون فى أعماقنا.. أي مكنون.. ربما يجد أحد منا مكنون مشاعره بين هذه الحروف.. أو تغسل قطرات الدموع بعضاً من آلامه.

ولأن الرجل والمرأة أساس الحياة فصارت كلماتي دوماً تدور بين رحايا العلاقة بينهما أحاول جاهدة سبر أغوار كليهما؛ أتحسس العثرات.. ربما نصل إلى درب يجمعهما إلى واحة حب وأمان.

سهير

الباب الأول

أنا والبحر

لـي مـع البحـر شـأن.. تـارة أروي لـه أسـراري.. أُلقـي إليـه بهمومـي.. وأخـرى يـروى لـي وهـو دومـاً لا يخذلـني..

حملـت متاعـي، وبعـض شـجون وتسـاؤلات ثـم أتيتـه ورجوتـه أن يـروى لـي مـا أثـار شـجونه عـن رواده سـجلوها بقطراتـه أو مـداد أرواحهـم أم ربمـا دم قلوبهـم القانـي.

انتظرت وجلة أن يصدني.. رفع أمواجه..

وبدأ حكاياته..

هذه ألقت بها صاحبتها بين أمواجي.. ثم رحلت..

ظلالك في الشمس.. ملامحك في البحر وفي سكون الليل وسطوته.. تكمن كل أسرارك.. ما أروع الحلم في عينيك.. منذ عرفتك لا أحلم إلا لك.. سيدي من يتعلم كيف يحبك.. يتغلغل في أعماقك، يتسرب بين جوارحك، لن يحيا إلا في ذاتك.

أنا زهرة البنفسج التي نبتت في واديك.. أثمرتْ بين رمالك، دموعها طوفاناً أيقظني علمني فن الإبحار، عشقت جسورك.. سكونك..

قل لي بربك كيف أصمد بجوارك؟!. كنت كصادٍ على رمالك.. تذرونى الرياح.. بِنَداك رويت أوراقي.. بحنانك كفكفت دموعي.. ابتسمت للحياة بعد أن صار لي مرفأ.. أأنت الذى أردت أم أنا التى تمنيت؟.. لا يهمني.. كنت أنا الزهرة.. وأنت واديها.. جذورها بين جوارحك.. لن يجرؤ أحد على اقتلاعها.. ستظل قصري الذى أرتع فيه.. فأنا جارية هواك، رحيقي لك وحدك.. عشقتك كما أنت.. بحنانك وإعصارك.. لمَ قسوة الأيام.. تأبي إلا الرحيل.. أتراني طيفاً راحلاً لا مَحالة.. ولا زمان ولا مكان للرحالة..

لا أدري.. أللم أشلائي المبعثرة فوق الأثير.. أحزم مشاعري بأربطة من حرير وأبدأ الرحيل.. يختنق بي المضيق.. تموت الخطوات فى قدمي أواصل المسير.. الشمس تلهب مشاعري لا أدري أيقتلني الهجير أم الحنين، متاعي آمال تحتضر وآلام تثور.. زادى بعض ذكريات.. تفيض دموعي.. تذبل أوراقي.. أواصل الرحيل.. لن أقول وداعاً ربما فى الغد لقاء يذيب جليد البعاد..

أفارقك؟!.. مستحيل.. هل للزهرة حياة بلا نسيم ؟!.. نداك يأتيني عبر الأثير لن تمنعه حواجز أو تخوم.. انتظرني على بوابة الزمن.. أري وجهك على صفحة الغروب.. أداعبه فيبتسم ابتسامة الحياة.. يا كل الحياة..

من كل زوجة غاب عنها توأم روحها رغماً عنها أو غابت هى عنه.

وهذه نقشتها «ياسمين» على رمالي قبل غروب الشمس ثم غابت مع المغيب.. أنا وهو.. نفس الحكاية.. قلب مهزوم محروم.. روح مجروحة.. نفس تائهة.. رست سفينتنا على بر واحد.. لكل منا آلامه وآماله.. تلاقت الآلام.. تعانقت الآمال.. وعلى مهل انصهر الروحان في بوتقة واحدة.. وقودها شوق وألم.. ها هنا عش دافئ يأوي إليه قلبان طال بهما الترحال.. ها هنا حطا الرحال.. ما أقل المتاع لكن ما أحلي الزاد.. حب فياض.. قلب رقراق.. نعم أحببته.. أحببت روحه.. قلبه.. لم تشغلني قصوره.. قلبه هو قصري..

ثم ـ وآه منه هذا الحرف عندما يعترض العبارات.. تتحول الدفة إلى متاهات لا نبصر بها سراج قنديل.. تسحقنا تطردنا لوادٍ بعيد.. هاج البحر وارتفعت الأمواج.. مالي احتماء غيره.. أين هو ؟.. أيتركني أهلك.. ألم أكن له السكن والآن يذبحني بالسكين ولا يحركه الأنين.. تحديت العالم كله لأجله.. جعلت قلبي وطناً ينتمي إليه.. وروحي سماء يهفو إليها.. جوارحي أرضه التي يرتع فيها.. أما جفناي فردائه من هجير الحياة.. أين ذهب كل ذلك يا رفيق.. مسكين يا قلبي الكسير.. هل أخطأت نبضاتي.. أم

لم يعد لها صدي فى قلبه.. ظننت فى يوم ما أنني عطر حياته.. يبدو أنني لست سوي نبات ظل، العراك على القصور والأرصدة يقتل الحب فى الأفئدة، جعلتك أميراً على بوابة عمري.. أردَاء الإخلاص غير وافٍ وتحمل الصبار غير كافٍ.. وينبوع الحب غير راوٍ، ما أردت إلا أن تسرع أناملة لقطرات دموعي تلتقطها قبل جفوني.. أن يُطفئ قلبه لوعتي.. يقتل خوفي.. أن أبصر فى عيونه دربي.. وأستمد من حنانه قوتي.. لم تعنيني قصوره بل اكتفيت بعيونه حين ترسم جسوري، طال صبري ثم أرسلت إليه رسالتي الأخيرة مع نسائم السحر:

«أميري.. لو كانت ياسمين زهرة فى واديك فاروها.. الزهرة لو طال جفافها تساقطت وريقاتها.. ادرك ما بقي.. طول الجفاف لا يُغني بعده الارتواء.. أميري.. من منا بلا آلام.. هذا هو الحب، أن تمسح يداي آلامك.. ويغسل حنانك همومي، أن أغزل فى عينيك حلمي.. ويسكن فى عينيّ رسمك.. لو ما نرتوي الحب سوياً ستنزوي ياسمين.. كزهرة الياسمين فى واديها.. أخبرني بربك.. ماذا جنيت.. جعلت حبك عنوان دربي.. وما أردت إلا إحساسك، قربك مهما كانت المسافات، الأرواح لا تقيدها الأمكنة.. رجوتك ألا تتمادي فى هجرك.. لو اعتاد قلبي بُعدك ماذا له بعدك.. ما رغبت إلا بعض لحظاتك.. حبك جذوري.. لمَ تُجبرني على اقتلاعها؟! عشقت فيض حنانك ما عدت أريَ مجراه..

يصـرخ قلـبي.. كان بسـمي ودموعـي، كان جنـتي وسـعيري، ألمـي وبلسـمي أبعـد هـذا يهجرنـي.. رفيقـي أكان حبـك صرحـاً مـن وحـي الخيـال فهـوي علـى قلـبي مزقـه.. أجبرتـني علـى الرحيـل مـن واد ترعرعـت فيـه.. ألدربـي سـير بـلا خطواتـك.. أنـت مـا أنـت؟ أرجـوك لا تكـن إلا مـا أحببـت.. سـأرحل قبـل أن أراك غـير ذلـك.. لوعـة الفـراق أهـون مـن انكسـار حلمـي فيـك.. أجلـد قلـبي بـكل السـياط.. ولتحيـا أنـت بـلا آهـات.. كان قلـبي طائـراً جريحـاً أبـي التحليـق فـى غـير واديـك ومـا رغـب إلا بـغصن فيـه فضننـت أنـت بـه.

أيهـا الرفيـق: قـد خـارت قـواي.. لـن يطـاردك هوايـا بعـد اليـوم.. لـو تذكـرت ياسمـين سـتجدها بعيـداً عـن الحيـاة فـى ذاك الـوادي البعيـد فـى ظـلال زهـرة الياسمـين.

وهذه من صديقتي وما أكثرهن، سعدت أنها التقت بمن يهدهد قلبها.

رأيته رقيقاً مثل نسائمك.. صافياً كمياهك.. طائراً مغرداً يعشق الحياة، تلقائي.. صوته رخيم.. تختلط مشاعره بنبراته، مشاعر متأججة ظمأى.. تحسبه فارساً لرومانسية حالمة.. شموعها وجد لهيبها أشواق.. يهفو لحبٍ طاغٍ.. يهدهد مشاعره.. يصير فيه الظامئ الراوي.. أثار شجونًي قلبه المشبوب الذى يأبى وأد نبضاته أو الاتجار بها.. ترفق بي رغم مشاعره الحبيسة المحرومة حق البوح.. وآلامه المدفونة بين ضلوعه وحلمه الوليد بلا أرض تأويه..لا أدري ما شدني إليه.. هل رأيت فيه نفسي.. أم رأيت فى حلمه أطياف حلمي الذى تسرب من بين يديّ.. أخذته الأيام غيلة، لاقي تمرده هوى فى نفسي الجريحة.. صارت كلماته صرخات فى فؤادي الممزق، ثوري.. اعترضي.. على حياة لا تري دخَّن القلوب وهى تحترق.. وضباب النفوس وهى تختنق.. حبي وانطلقي فما الحياة إلا لحظة حب.. لحظة قرب لا تكونى فيها إلا نفسك.. تنتصرى فيها على حياة لا تملك إلا سياطاً.. لا تعرف حُباً أو آهات.. بل تتقن فن اللطمات، لا تخنقي قلبك.. تقتلي حلمك.. دعك

مـن الخنـوع والاستسـلام.. مـن أنـتِ بـلا أحـلام.. مـا للطـير حيـاة بـلا تحليـق وتغريـد، هـا أنـا حاولـت قبلـك أن أقهـر قلـبي.. أقتـل حلمـي.. فمـا قهـرت إلا نفسـي.. تمـزق القلـب بـين الضلـوع.. تهـاوت أيامـي ثـم تمـرد حلمـي.. رحـل قائـلا: اتبعـني أو اهجرنـي.

مـن يومهـا وأنـا ألملـم أشـلائي.. أجمـع نثـار قلـبي.. أحيـا بـروح المحـارب وآمـال المحـب الوالـه.. ليكـن عهـدي عهـدك.. دع الانكسـار ليـس فـى الحـب انتظـار.. لا تطرقـي الأبـواب ليـس فـى الحلـم اسـتئذان، هـذى يـدي.. هـذا قلـبي.. أعـدك ألا أرحـل.. لـن أتـركِ.. لا تهزمـي قلبـك فيتـوه حلمـك بـين أمـواج الحيـاة..

هـا أنـا أيهـا البحـر.. أروي لـك مـا حـدث بيـني وبينـه.. أتظـن أنـه ميـلاد لحـب طالمـا انتظرتـه..

هـذا القلـب اختلطـت نبضاتـه بأمواجـي، تـرك رسـالة لصاحبـه. قائـلاً: إنهـا أملـه الأخـير..

مـاذا لـو منحتـني حـق البـوح، أمـا كفاك عـذاب واغـتراب؟! لمـاذا تجلدنـي بسـياطك وأنـا وهبـت الإخـلاص لمـن منحتهـا حقـا فيـك بمـلء إرادتـك.. وكان مـا كان منهـا.. وكان لـي منـك الألم.. فصـبرت وآسـيت.. ثـم أتـت أخـرى بطوفـان حبهـا.. ربمـا فـى واحتهـا حياتـي، لحظـة بـين حناياهـا هـى عمـر الأعمـار، تصـرخ نبضاتـي باسمهـا، تشـتاق أناملـي ملامـح روحهـا الفياضـة.. وأنـت لازلـت تعاندنـي يطـاردك الماضـي الأثيـم.. يُصـم أذنيـك عـن آهاتـي، يغمـض عينيـك عـن طيفهـا.. يذبـح الكلمـات قبـل أن تخـرج مـن شـفتيك، إن كان لابـد مـن الذبـح فاذبـح الماضـي بجبروتـه.. مـزق شـريان قسـوته.. ولـتُرِق دمـاء غـدره.. ثـم اغسـل روحـك بنهـر الحـب.. واروهـا تريـاق الأمـل.. يـا صاحـبي قـد طهـرت نبضاتـي مـن الجـراح وهـى تلملـم بقاياهـا مـن سـنين.. والآن فـى مقلـتي صورتهـا بنهـر حنانهـا الدافـق.. لا تقـل رويـدك مـا عـاد لـي اصطبـار يكويـني الانتظـار.. أسـتحلفك بالـذي بيننـا.. صـبر وألم واحـتراق.. دعـك مـن الخـوف.. فـك قيـود شـراييني ليسـري حبهـا فـى دمايـا.. ربمـا يرتـوي عمـري بعـد طـول جفـاف.. سـأهرب إلى ثنايـا

روحهـا لتهدهـد نبضاتـي.. أسمعهـا تناديـني، أحببتهـا فـى صحـوى ومنامـي.. «لـن أكـون لسـواها»

سـأنتظرك هنـاك.. إيـاك أن يهزمـك الماضـي.. أرجـوك؛ ليكـن رجائـي الأخـير.

وهذه من صديقة بيننا عهد وحب وذكريات.. بها دموع

شجن وفرح.. بها فراق.. لقاء.. بها خوف وترقب «ها أنا بين يديك بعد طول بعاد.. لا أدري لمَ تغير لقائي بك.. إلى أين ذهب الشوق.. مزق أوتار قلَبي انتظاره.. التهب الحريق.. ترنحت النبضات.. انتظرت أن تمدها بإكسير الحياة.. وها هو اللقاء.. لا رغبة لي أن أقترب ما عُدت تثير مشاعري.. انطفأت نيران الشوق.. أيموت الحب فجأة؟! أتضيع سنين العمر بلا عزاء.. أنت كما أنت سكونك.. هياجك.. صوتك.. صمتك.. لم تتغير.. هل انطفأت ومضة مشاعري.. صار لكل منا طريق.. تاهت بنا الخطوات.. هجرنا الحب أم هو في رحلة اغتراب؟! لا تقل لم يعد لقلبي نبضات.. أو أنني نسيت الهوى.. كنت أعشق رائحتك.. شاطئك.. كنت أرى في أمواجك براءتي.. أنوثتي.. كياني، أين ذهب كل ذلك؟! أبغي اقتحامك كما كنت أفعل.. هل سأراني في أعماقك.. ألا تفسر ما فيه.. صرت أهواك بلا أشواق.. أمات الحب أم هو مهزوم مكسور.. هائم على وجهه يخشى ما يبعث فيه الروح.. يخشى رائحة الحلم.. بربك أجبني هل سأبقي كذلك أم سأعود إلى مرفئك..؟! لو ما بيننا حب حتماً سأعود إليك..

حينها ستكون في انتظاري.. وإن كان غير ذلك أسالك ألا تنتظرني.. فلا حاجة لقلبي لمزيد من الخداع.. لا تُبكيني مرتين.. مرة على وهم الحب.. والأخرى على ضياع العمر.. لا أخفى عليك.. يعاتبني قلبي مراراً.. يتعالى عراكنا.. مَن منا المخطئ.. لو كان قلبي فلا عهد له عندي.. وإن كنت أنا فلا أمان له مني.. لم أعد أدري هل أريد أن أذكرك.. أو تذكرني، كنت بسمتي حين منحتك جروحي.. كنت قلعتي حين لم يبق لي إلا ضياعي.. أرجوك لا تذكرني فأنا لا أريد تذكر ضعفي»..

أثارت هذه الرسالة رمالي وأبكت أمواجي..

لم أدر كم مر علىّ بعد رسالتها التى أثارت شجوني.. ثم جاءتني منها هذه الرسالة: «الآن يملؤني الشوق أن أرتمي بين أمواجك أترك لك شعري وثيابي لتعبث بهما كما كنت تفعل فى الماضي البعيد.. الآن أريد أن أهمس إليك بحكايتي.. قد طال شوقي للحديث إليك.. أريد استعادة ذكرياتنا سوياً.. الآن أروي لك عن حب طالما انتظرته.. سأصف لك من أذاب جليد فؤادي.. أطلق العنان لنبضاته أسمع ضحكاتك وأنت تقول.. نعم أسمعك ثم ترجوني أن تسمع الحكاية وأنا فى حضن أمواجك.. سأفعل قد أخبرتك أنك الوحيد الذى حمل أسراري.. ضمني.. مسح همي.. دعني أخبرك عنه بدون أن تلاحقني بالأسئلة.. ذو عينين شاردتين فيهما سرٌ دفين لهما بريق لا يدرك أحد كنهه، ينطويان على ألم مكتوم وكبرياء. يدعوك أن تسبح فيهما؛ ينهراك بعنف إياك أن تقترب.. لن تقدر.. كان هذا أول لقائي به.. حوار صامت طاغ مع عينيه.. أما حديثه فحديث الواثق.. جمل قصيرة لكن عميقة تخفي وراءها تجربة أليمة وهبته حكمة وخبرة..

أما سمته فكما له روح الفارس وكبرياؤه، فهو أيضاً يملك جسده وقوته بل وجاذبيته.. من أول شعره الثائر الذى يعاند الحياة قائلا: لي فيك أيام لم أعشها بعد..

ثم جبهته الشماء التى لم ولن تنحني لأعاصير الحياة، إلى صدره الرحب وقامته العليا.. رأيته فارساً راكباً فرسه وسيفه فى يده، يصارع الأيام ألا تغلبه والمآسي ألا تقهره.. شدني إليه أنه إنسان جميل فى زمن عز فيه الجمال.. وجدتني أقترب منه رغماً عني.. حدثني قلبي أن ما أبحث عنه يكمن بين ثنايا ملامحه.. أخفاه من السنين فلم تسلبه إياه.

أما متى وُلد حبه فى فؤادي.. وما أدراك ربما السنين.. نَقشت ملامحه على جدارى.. إنه الفارس الذى عشت معه أيامي.. وذُبت فى أحلامي بين راحتيه.. نعم إنه هو من كتبتُ له قصائد عشقي.. لم أر أحداً ممن قابلوني لأنه كان يسكن جفوني.. كلما نظرت حولي لم أر إلا صورته.. نعم لم أحبه الآن.. بل طوفان حبه يمور فى جوارحي من سنين.. يناديه أن اقبل؛ قد طال شوقي إليك.. لم أسأله لمَ تأخر.. حنانه يعلو على مرارة الصبر.. تهمس فى أذنيَ «من منا سعي للآخر؟» لا يهمني.. فلو سعيت إليه فهو جدير أن أستعير جناحين وأرفرف بهما حوله، وإن سعي هو إلىّ فلأنه فارس مدَّ يده إلىّ وحملني بين ذراعيه.. وضعني على فرس أحلامه، وانطلق بي فى عالمه وما أحلاه.. ثم كان ما كان.. أسمع نغم أمواجك لانتصاري لقلبي.. هذا ما كنت أرجوه منك.

وأخيرا.. سآتي إليك.. وأنا بين أحضانه.. أضع رأسي على كتفه.. أترك شعري لأنامله ونفسي لفيضه.. يحملني بين جوارحه ثم يداعب أمواجك وهو يروي لك حكايتنا..

ستكون أروع عندما تسمعها من شفتيه.. تقرأها فى عينيه .. وأنا أعبث بأناملي فى شعره المجنون المسترسل، كمشاعره المتدفقة.ـ تترقرق كلماته على رمالك كعزف ناي.. كاد يدرك مكنون نغم الحنان، حينها أستمتعُ بها مرتين.. مرة وأنا أحياها بين جوارحه.. وعلى عتبات فؤاده.. وأخرى وأنا أراها تخرج من شفتيه، تُفجر ينابيع وجْدٍ يكفى قلوب العاشقين، وحنان يروي ظمأ المحرومين.. إنني أصرخ بكل خلجة من خلجاتي أن اشهدْ يا بحر أنني أحبه ولن أحب سواه.

صحوت من غفوتي فما كان ذلك إلا حلماً عابراً.

أما هذه فقد ألقت إلىّ بها الحياة وأوصتني أن أقرأها على كل قلب غدار لا يصون الحب وما أكثرهم.

لم تتنازل الشمس عن قرصها الذهبي بهالته الحمراء.. وما ارتدت السواد ومنعت دفئها عن البشر.

والقمر لم ينتحر تاركاً العاشقين بلا أمل فى لقاء تحت ظلاله.. والليل لم يبد يوماً قاسياً على رواده بل منحهم بعض السكينة ثم تركهم للنهار ليملأ دربهم بسناه.. والسَّحَر مازال يُهدي نداه للأزهار لترقص رقصة الحب والأمل.. يغازل بنسيمه العصافير فى عششها لتحلق فتضرب بجناحيها جبال القهر فتغمر القلوب بأمل وليد وتغني أنشودة الحياة، أرأيت؛ لازال قلب الكون ينبض بالحياة.. لم يهن إلا قلب لم يدرك نبضه معنى الحب.. وما افتقدته معاني الحياة.

أراه الآن يرقص منتشياً على أشلاء قلب كم تغنت نبضاته باسمه وهى ترويه أسمى معاني الحب.. وتكتم بين أوراقها الآه.. رويدك يا مخدوع،فلكل ألم نهاية.. ولكل عربيد نكاية.. ستنظر فى مرآتك إن لم يكن اليوم فغدا.. وإن لم يكن بإرادتك فبإرادة الأيام حين توليك ظهرها زاجرة كفاك

مـا سـلبت ومـا تنسـاه أبـداً لا أنسـاه.. هـا هـى ديونـك بـين جوانحـي عِشـتَ أيامـك لنفسـك.. وأنـت الآن وحـدك.. مَـن لـك يـا مسـكين.. مَـن يلملـم بقايـاك.. مَـن يمنحـك بعضـاً مـن قـوة تُعينـك علـى لطمـات الحيـاة.

أتذكـرُ.. قلبـاً رقصْـتَ علـى أشـلائه ابحـثْ عنـه.. ربمـا لا يتوانـى فـى احتوائـك.. فمَـن ملكـه الحـب دومـاً لايقـدر إلاعلـى الصفـح.

أما هذه الرسالة فهي من رفيقة أمواجي الرقيقة الحالمة «نسمات».. لم تروها لي.. بل عشتها معها وتألمتْ أمواجي لأجلها.. اليوم أرويها مع دموعي.

كانت نسمات تحلم وهي مفتوحة العينين، لها جناحان تحلق بهما في الأجواء لتدرك ماهية السعادة.. وما السبيل إليها، تمتلك قلباً مفعماً بالحب لكل البشر.. كثيراً ما تساءلتْ: لمَ لا يكون الحب لكل الناس؟!.. يتنفسونه.. ما أقسى الحيَاة وهي جرداء بلا حب يرويها..

طوت أحلامها بين ضلوعها.. بكت قسوة الحياة عليها.. ابتلعت آلامها وهي تربت على قلبها المزق.. تطمئنه.. الحب لا يزال ينبض.. طالما الشمس تبعث دفئها.. والقمر يؤنس العاشقين، حرب الحياة عليها شعواء وفي الحرب كل شيء مباح.. لكنها واصلت دربها وقلبها يصر على حلمه العنيد.. تشبثتْ بالقلب الأخضر الذى ما أرادت من الحياة سواه.. لكن كسرت الحياة قلبها.. تركته طائراً جريحاً بلا تغريد أو تحليق.. كان حلمه عش في شجرة على طرف ورقة خضراء يتنفس حُباً له خلود يهزم حياة كم هي قصيرة..

فالحب نهر متدفق يروي الظامئين بلا حساب للسنين.. يبدو أن أحلام القصور على الأعتاب وأحلام الطيور بلا

أربـاب، طـال انتظارهـا ثم لمحتْ نسـمة بـاردة مقبلـة، ناديتها: مرحـي يـا نسـمات.. رسـت سـفينتك علـى شـاطئ الحـب.. نعـم صدقـي فهاهـي نسـمة تداعـب عمـرك بعـد الهجـير.. مـا أرقهـا وهـى تطـوق قلبـك الظامـئ..

تعانقـت أمواجـي فـى مـرح وهـي تـري قلبهـا يحيـا الحـب كمـا تمنـاه.. احتـواء.. ذوبـان.. عطـاء، لكـن مسـكينة نسـمات كأن الحيـاة لا تـري غيرهـا.. اعترضـت الأنـواء سـفينتها مـرة أخـرى.. طمأنتُهـا.. هوَّنـتُ عليهـا.. أنـتِ الآن يـا صديقـتي لـكِ شـاطئ ترسـين عليـه.. اعتلـت الأمـواج.. خنقتهـا.. صـرخ قلبهـا.. نـاداه.. أن اقبـل يـا رفيـق ابسـط جناحـك.. قلبـك شـراعي، مـرة أخـرى رأيتهـا تصـارع الحيـاة وحدهـا احتضنتهـا أمواجـي رفقـاً بهـا.. عـلا نبـض قلبهـا.. كان تسـاؤلي أعلـى منـه.. أحقـاً يُحبـك؟.. ألنبضاتـك صدي فـى جوارحـه.. ألندائك مـكان فـى قلبـه.. علـت أمـواج الحيـاة عليهـا.. ارتفعـت معهـا صرخـات قلبهـا.. سـامحيني يـا ذات النسـمات حياتـك هجـير.. ظننـت قلبـه نسـمتي.. كيـف أنـزع حبـه وهـو يسـابق دمـي.. بدونـه تنشـطر روحـي.. لـو كان حبـه وهمـاً مـن نسـج نبضاتـي سـأمزق أوردتـي.. أقتـل نبضاتـي.. لـن أتحـدي الحيـاة مـرة أخـرى.. بـل أعانـق بحرهـا الهائـج بـلا ارتعـاش..

يعلـو اسـتصراخها ويـزداد تجاهلـه لهـا، تتهاوي.. تتسـاءل: أللحـب معـني غـير الـذى أعلمـه؟!.. وأتسـاءل أنـا.. هـل هـو أحـب نسـمات حقـاً أم أنهـا كأي النسـمات؟!.. وقـف قلبها عن

النبض.. أرهفت السمع أطلقت بصرها حيث الشاطئ.. رأته يحمل أمتعته ويرحل إلى نسمة أخرى.. وما أكثر نسمات الحياة.. تساءلتُ معها لِمَ؟!.. ولا مجيب..

عانقتْ أمواجي باستسلام.. لم يقو قلبها المطعون على تحمل الغدر.. وما هي إلا لحظات على رمالي حتى اختفي نبضها رويداً.. رويداً.. لم يبق منه إلا صدي.. هاجت أمواجي معترضة على ظلم المرء لمن أحبوه وأخلصوا له العطاء.. من يومها وأمواجي ورمالي يبكونها حين يتنسمون نبضاتها الأخيرة.

هذه رسالة لم أر صاحبها إلا مرة واحدة حين آتي إليّ.. ألقاها بين أمواجي ثم رحل.. ولم يعد إلى الآن..

أعترف أنك ما كنت لي يوماً صديقاً لكن أدرك أنك لا تطرد روادك.. ولا تَمَلهم.. أردت من يسمعني.. فلم أجد خيراً منك..

لم أرها منذ بضع وعشرين سنة إلا مرات قليلة متباعدة.. الأيام ترمح بنا.. تحملنا عجلات السنين بعيداً عن آمالنا، برغم ما فينا.. نحملق فى مآسينا.. نعدو فى جسارة لنحقق شيئا مما كنا نأمل.. بضع وعشرون سنة مضت لكنها لا زالت تحتجز فى الذكرى مكاناً مميزاً بوجهها الطفولي وابتسامتها البريئة.. كان الحب فياضاً لأختها الكبرى.. غمر الحب كل وجداني.. تخلل جزيئاتي، كان حينها مغلفاً ببكارة العواطف وصدق المشاعر.. تخيلت حينها أن صدق المشاعر وعمق الحب وجزالة العطاء يمكن أن يكونوا قرباناً للفوز بقلبها.. عشت أياماً رائعة.. وأحلاماً أروع وأملاً يجمع قلبينا إلى الأبد..

ولكن.. آه يا لكن بدَّلتي الأيامَ والأفكار.. تغيرتْ المشاعر حين انحرفت بوصلة العواطف.. دفع القلب الكبير ثمن براءته وصدق حنينه.. سيق إلى مذبح الغدر.. لم ينقذه عطاؤه، لم يشفع له نقاء سريرته وسمو غايته، سالت دماؤه على الجدران.. لم يصرخ؛ حاصر الألم.. انسحب فى شمم.. حدق بقوة فى جراحه ولم تسقط دمعة واحدة من

عينيه، حملت قلبي بكل جراحه وقلت وداعاً.. تمالكت كياني.. زادت صلابتي.. سبعة أعوام سُرقت من قلبي المخدوع أنضجته صقلت إحساسه بالحياة، تزوجتُ بعدها لأني كنت تواقاً لبناء أسرة افتقدتُّ روحها كثيراً.. أما الحب فقد ولت أيامه.. أنجبتُ ولدين وبنتين هم دنياى..

أتذكرين الزمن الجميل.. استرجعت فذكرتني بما لم يسكن ذاكرتي وأنا صاحب المأساة.. طال حديثنا.. لمس أوتار قلبي.. أدهشني ما قرأته فى عينيها.. ولمسته فى نبراتها وكأنها تقول سقط قلبك صريعاً لحب قهره حين أدركت رغم طفولتي أنه سيسقط أكنتَ مغيباً إلى هذا الحد؟!

بضع وعشرون سنة ثم تطُل علىّ بوجهها الطفولي لنطرح سوياً ذكريات «حلم وألم» رويت لها ما فعلتْ بي الأيام.. حدثتها عن رياحين قلبي؛ أبنائي..

ثم روت لي رحلتها المؤلمة مع الحياة.. ردد قلبي سراً «مسكينة كل هذا الألم»..

قرأت فى عينيها.. (مَن منا لا يتألم ولكن نحن من يسعى الألم تارة غافلين وأخري متغافلين، ليتنا نتقن الهروب منه كما سعينا إليه).

أدركت حقيقة أن وهم الحب أحيانًا يغلق كل الحواس عما سواه، نعم لم يكن إلا وهم.

وهذه ألقتها إلىّ صاحبتها بين دموعها راجية أن أقرأها على رفيق عمرها فهذه أول مرة يفترقا منذ عرف قلبيهما معني الحب الطاهر البرئ فى طفولتهما.. ثم الصبا.. والشباب.. ثم النضج.. والاستقرار.. لكن هى أعاصير الحياة..

إليكم الرسالة:

منذ وعي إدراكي معنى الكلمات وهى لم تخرج من شفتي إلا لك، ولم ينبض الفؤاد إلا لرسمك.. ولم تسكن الروح إلا لصِنْوها.. ويجف عمري لو لم تصاحبه صورتك.. كن أينما تكون.. مكانك فى فؤادي.. أنفاسك تلاحق أنفاسي.. صورتك تسكن جفني.. صوتك يتردد فى أرجائي.. أرسل لك صباحي مع نور الشمس كلماً داعب عينايّ.. وقبلاتي مع ندي الفجر إذا لثم جبيني.. كلما ملأني الشوق إليك أغمض عيني فأراك.. حينها تغرقنى نفحاتك.. فأذوب صبابة لا يدركها إلا من استوطن الحب قلبه.. الحب كما أرسمه أنا.. لا كما رسمه غيري.. حينها تنساب كلماتى وهي لك وحدك.. أوقن أنها تصلك حتى لو لم تقرأها..

وأخـيراً.. لـك أشـواقي مـع كل حـرف ينطقـه فـؤادي قبـل أن يخطـه القلـم.

أتاني على عجل أسـتمع إلىّ.. هرول مسـرعاً سـألته: إلى أين؟!

أجابني: لا معنى للحياة بدونها.

وهذه رسالة من جار لي منذ أكثر من عشر سنوات كل ما بيني وبينه أنه يجلس على رمالي ويتأملني فى صمت..

وذات يوم جاءني.. حائر.. غاضب ألقي إلىّ بها ثم رحل:..

أيها البحر.. لا أزعم أنني صديق.. أو أجيد الحوار معك.. فما ألقيت إليك يوماً بهمومي وهذا ليس لأنني بلا هموم.. بل لأني أتقبل واقعي بكل شجاعة.. ولا أفعل إلا ما أحب أن أري فيه نفسي.. لي تجارب كثيرة.. لا أزعم أنني وجدت فيها كل السعادة بل كان الألم رفيق السعادة.. أو يسبقها أحياناً.. كنت حينها أقول لنفسي: لكل شيء نهاية.. للألم نهاية.. وللسعادة نهاية.. لكن أشهدك أنني ما خرجت من تجربة بدون أن أتحمل مسئوليتي فيها أو ما يجعلني أستحي أن أري وجهي على صفحة مائك.

أما الحكاية التى حيرتني فهي لصديق رافقني فى طفولتي وشبابي وخريف عمري.. عشتها معه، كنت أشفق عليه منذ صغره.. رأيته طفلاً متمرداً على واقعه.. ثم شاب يحفر فى الصخر ليصنع صورة أرادها لنفسه.. وقد نجح نسبياً ثم بدأت حياته العاطفية.. مع امرأة لم يخترها هو بل أهله.. لم يعجبني الاختيار فهو مسالم وهى قوية عنيدة

كأهلها.. لم أتوقع النجاح لتجربته.. وانتظرت رأي الأيام.. عاش سنين صعبة.. وبعد فترة طويلة هرب من الجحيم تاركاً كل شيء وراءه.. تخبط بعدها فى تجارب كثيرة.. ما بين ما هي أكبر منه وكن كثيرات.. وما دون ذلك وهن قلة.. لم يفلح فى أي منها.. ثم كان ارتباطه الثاني.. امرأة أحبته.. هكذا قال.. عاندت أهلها من أجله، كانت فى الثلاثين من عمرها، سعد بها كثيراً.. وتمنيت من قلبي له السعادة.. سنين وانطفأ البريق.. وعاد الظلام لحياته يرافقه الجفاف له ولها حيث فقد هو الحب وحُرمت هى أجمل ثمرة للزواج «الأمومة»، تعثر فى حياته مرة أخرى.. هذه المرة لم يهرب من داره بل هرب داخل نفسه.. تشرنق على ذاته.. اعتزل واقعه.. وهى رضيت به كذلك.. فلم تعد تري فيه إلا أنه حرمها من الأمومة.. وجعلت ذلك أساس استمرار الرباط بينهما.. استسلم هو.. وحزنتُ أنا عليه مرة أخرى.

مرت سنون وتسلل الخريف إلى عمره ثم جاءني بها.. امرأة تتفجر أنوثة وعقل فى آن واحد.. متميزة واثقة من نفسها.. ساق لي البشرى.. هذه يا صديقي أحبتني واختارتني.. وأنا الآن أحيا ما حُرمت منه طوال عمري.. لا أريد من الدنيا سواها.. قال الكثير عنها.. سواء أتذكره أو لا.. إلا جملة واحدة لا أنساها «هذه أجمل امرأة فى العالم.. ملاك يمشي على الأرض»، طرت فرحاً أخيراً يهنأ بما حُرم منه.. مرت أيام.. سألته عن حاله.. أكد أنه يرشف

أجمل رحيق للسعادة.. مرت أيام قليلة ثم جاءني صوتها عبر الهاتف.. كانت الصاعقة، بهذه السرعة ينهار الحب الأسطوري الجميل.. لمَ؟! لم أصدق ما أسمع.. صديقي يفعل كل ذلك.. خجلت كرَجل مما أسمع.. يتركها متخلياً عن كل مسئولياته عنها.. فى حين لم تطلب منه إلا سماع صوته والاطمئنان عليه.. وهو يضن بذلك أين الحب واللهفة؟! شعرت أن فى الأمر لغزاً لا أعرفه، زوجته الأخرى عرفت.. وما فى ذلك؟! كان لابد أن تعرف.. ألا يستطيع أن يدافع عن حقه فى الاختيار؟! صارت حياته فى قبضة زوجته الثانية.. أهو ضعيف خوار لهذه الدرجة، وعدتها بإنهاء الأزمة.. قالت عبارة واحدة: «انتهي كل شيء» لا فائدة من المحاولة.. لن يقدر على اتخاذ أي قرار.. ولن يدافع عن أي شيء.. هو لايجيد إلا الهروب.. مشوار حياته سلسلة من الهروب، بكت فأدمت قلبي..

اتصلت به عنَّفته.. رجوته أن يقول أي شيء.. قال: «انتهي كل شيء».. هى من صنعت كل شيء ثم دمرته، سألته كيف؟ راوغني.. هرب حتى من لقائي، وضعت السماعة وفى صدري حسرة وألم على الحب الذى اُغتيل خلسة، وعلى رفقة عمر دامت أكثر من نصف قرن لم أدرك فيها صديقي.. ثم أدركته امرأة فى أقل من شهر.. رؤيتها جعلتني أراه بعين ثاقبة.. هو ما ترك الأولي ترفعاً وكرامة بل خوفاً من أهلها.. وهروباً من شوكتها التى لم يستطع

أن يكسرها ولم يُفلح مع الأخريات لأنه لم يستطع التأثير فيهن.. ثم كانت الثانية.. وكان ما بينهم من جليد.. لأنه بكل بساطة لا يواجه واقعه.. بل يهرب منه.. أشقاها بعدم الإنجاب ليهرب من عقوق الأبناء لأنه لا يعرف كيف يحتويهم.. وأشقي نفسه بصمته وعُزلته عن العالم حتى جاءت الثالثة، انبهر بكل شيء فيها صار كجذوة نار.. تخيلته حينها سيحارب العالم أجمع.. شمشون زمانه.. لكن يا للحسرة انطفأتْ الجذوة من أول نفخة من زوجته الثانية.. ثارت عليه فانكمش على نفسه محاولاً الرجوع إلى نقطته، هرب من التيار ولم يجرؤ حتى أن يواجه نفسه وضعفه.. لم يستطع أن يقول بصراحة الرجال.. لن أستطيع المسير في طريق بدأته في خريف العمر حتى المروءة والشهامة تخلي عنهما حين ألقي باللائمة بكل خزي الرجال على من تنازلت عن كل شيء.. لكي تُعيد صياغته، قال: فعلت دمرت.. ألست صاحب القرار.. أم أنك لا تقدر إلا على الاستقبال.. نظرت حولي فلم أره فهو هارب كعادته.. في حين رأيتها بكل جسارة تواجه تجربتها شديدة الألم.. قصيرة الأجل، حزنتُ مرتين.. لفجعيتي في رفيقي حيث قرأته خطأ سنين طويلة ولتخاذله كرجل، في حين سعدت لرؤيتي امرأة مثلها.. أي صنف من الرجال تراه يا بحر.

وهذه ثلاث رسائل متتالية جاءتني من النساء اللائي ذكرهن الصديق فى رسالته السابقة.. فيهن إجابة سؤالك.

أنا يا بحر.. المرأة الأولي فى حياة هذا الرجل، لا أُنكر أني قوية.. عنيدة.. لأنني سليلة أسرة كذلك.. خُطبت لهذا الرجل.. وأي امرأة مهما كانت قوتها تريد رجلاً.. لا أرنباً.. إن كنت تماديت فى تسلطي فلثورتي على ضعفه.. لماذا لم يقهر عنادي وجبروتي؟!.. فإن لم يقدر.. لماذا مكث معي كل هذه السنين.. ثم اعتزلني ويضمنا جدار واحد.. لم يقدر على مواجهتي ولا مواجهة أهلي.. ماذا ينتظر منى بعدها أن أحبه.. كيف أحب من هو أضعف مني؟!.. من لا يُجيد إلا الهروب ثم يدَّعي المسالمة.. ما كنت أريده مسالماً كنت أريده قوي ليكون حصْني.. ليته عندما خرج ولم يعد طلقني بل جعلني أحيا كل هذه السنين زوجة بلا زوج ثم يدَّعي العدل.. نعم انتقمت منه.. حرمته من أبنائه كما حرمني حريتي.. هو الآن فى خريف العمر لا أنتظر منه إلا بضع جنيهات أرثها بعد وفاته.. أتُري أن العمر لا يساوى إلا هذه الجنيهات؟!.

وأنا المرأة الثانية لهذا الرجل.. أحببته.. تحديت أهلي لأجله.. منَّيتُ نفسي بأسرة أكون ربتها.. حلمت بمن يناديني «ماما» سلبني هذا الحلم.. اعترف أنني أخطأت حين لم أدافع عن حلمي.. أمومتي.. حتى لو كان حبي له الدافع لتنازلي.. هو حبي له.. فقد تطاير الحب كما يتطاير الدخان.. لم يبق منه إلا رماد ظللت أنثره فى وجهه طوال حياتي.. أصررت على تذكيره دوماً أنه السبب فى حرماني من أمومتي.. تباعدت بيننا المسافات كرهتُ لقاءه.. قتلت رغبتي فيه.. ارتفع الحائط بيننا.. له حياته الصامتة ولي حياتي الساكنة.. حتى علمت أن هناك امرأة أخرى.. جمعتُ كل مرارات السنين لأواجهه.. حاربته وفى الحرب كل شىء مباح.. ولمَ لا؟! ربما فعلت ذلك لأنتقم منه.. أو لأني أراه ملكي وحَدي.. هو لي كأي شىء بمنزلي.. صار قبوعه على مكتبه أو فى سريره من طقوس حياتي.. لا تلومني هو من فعل بي.. وبنفسه من سنين، أنا أدافع عما بقي لي منه.. صورة اجتماعية باهته.. ثم بعض إرث؛ تشاركني فيه امرأته الأولي، ليس عنده ما يبقي لامرأة ثالثة، لا تقل إني ظالمة.. أو متسلطة.. بل هو خوار دوماً.. لو رأي لنفسه حقاً لدافع عنه، وإن كان لا يستطيع اقتناص حقه فلا يلومن إلا نفسه.

ثم جاءتني المرأة الثالثة.. يا لحزني.. إنها من صديقاتي.. رقيقة مثل نسائمي.. فياضة كنهر متدفق.. لها قوة أمواجي وثورتها لو تطلب الأمر ذلك.. تشبهني كثيراً.. لذا أحبها..

– أعتذر إليك يا صديقي أني أتيت إليك الآن.. بعد انتهاء كل شيء وكان حريّا بي أن تكون ثالثاً.. لكن هكذا شاءت الأقدار، حين تسمعني ستعذرني.. نعم أنا المرأة الثالثة.. لن أذكرك بذكرياتي الأليمة حتى لا تهيج مشاعري وأمواجك، لم يجرؤ أحد يوماً على اختراقي.. ثم جاء هو بنعومته في وقت أعترفُ أنني حينها كنت أتلمَّس الأمان.. أحتاج من يأخذ بيدي.. يُذيب أحزاني، رأيته يفعل ذلك ببراعة وإصرار.. قال: سأقدم قلبي قرباناً على مذبحتك.. اخترقت كلماته قلبي.. روي بعضاً من حياته من منظوره هو.. رأيته كما رسم نفسه.. فارس مضحي من أجل الجميع.. يكره الظلم.. أحببت فروسيته.. امتطيت فرسه.. لأخوض حياته بلا أي قيود عليه.. ثم كما جعلني أحبه في أيام قليلة اقتلع جذور هذا الحب في أيام أقل، حين رأيته بعين الحقيقة.. ليس مسالماً.. بل ضعيف متخاذل.. لا يحمي نفسه.. فكيف يقدر على حمايتي؟! يأخذ كل شيء بلا خجل ولا يعطي أي شيء بمبررات واهية.. ثم جاء الطوفان كما أطلق هو عليه، زوجته الثانية عرفت.. فأثارت من حوله، ظننته سيدافع عني ويحميني.. يدافع عن حياته

لكنه هرب وترك المركب، أخذ يقدم فروض الطاعة لمن يخشاهم.. أما أنا فلابد من ذبحي.. فلن يخشى منى شيئا.. جعلني قرباناً لينعم باستقرار حياته لو أحبني ما جرؤ على ذبحي.. هذا هو من يكره الظلم كما ادعي.. وهو فى الحقيقة يحتكره لنفسه، لم يستطع مواجهتي لأنه لا يملك ما يقوله.. اتهمني بالجبروت ليداري ضعفه وتخاذله.. لقد مزقت صفحته بلا أسف عليه، من لا يتألم لفراقي، لا يستحق لحظة ألم لفراقه.. كل ألمي أنني صدقته وعزائي أنني رأيته سريعاً بوجهه القاس الظالم.. وليس الوجه الذى رسمه بكلماته.. لو رأيته يا بحر أخبره أنني لن أسامحه ما بقي لي من عمري على ظلمه لي مرتين.. مرة حين تخلي عن واجباته نحوي بلا اكتراث.. وأخرى حين اتهمني أنني المذنبة ليداري ضعفه..

وهذه من صديقة

الآن أريد أن أراني.. كنت أنظر إلى صفحتك بزرقتها لأري ملامح وجهي وأخدع نفسي قائلة: روحي فى ملامحك كما جمالك فى زرقتك وسكونك.. أما الآن بعد هذه السنين جئت إليك لم يتغير فيك شيء، لكن تهاجمني الذكريات، هل كنت أحب نفسي حقاً أم أنني أعطى الجميع منها ولا أمنحها شيئاً، حقاً للعطاء لذة، لكن لابد من وقفة، من يعطى إن لم يأخذ سيجف ينبوعه ومن اعتاد أن يأخذ دوماً لن يتعلم فن العطاء أبداً، المرأة التى تذوب عطاءً تصنع رجلاً يذوب أنانية، أدركت ذلك بعد عناء السنين، ليت النساء تدرك أنها من تصنع تعاستها عندما تسرف فى العطاء خوفاً من الفقد فيسرع إليها عند ما لا تجد ما تعطى.

تسألني لمَ أشق على نفسي هكذا، سأبدأ حين كنت بالسابعة عشرَ، لن أطيل عليكم أحببته.. تزوجته، كنت لا أري الحياة إلا من عينيه، رأيته كما رسمته لا كما هو، دوماً لدى مبررات لكل تصرفاته، الهروب من الواقع يلازمني ورغبتي فى الفناء فيه تحاصرني، أخذ من سنين عمري الكثير وحين الفراق لامني لعطائي الوفير.. لإنكاري ذاتي التى لم يشعر بها، أنا لا ألومه بل ألوم نفسي، أنا من

أخطأت تصورت أن الحب فناء فى الآخر الحب تكامل مع الآخر، إذا أفنيت نفسي فلِمَ أريد من شريكي أن يجتهد فى البحث عنها ليُحبها؟! أنا من جعلت أنفاسي امتداد لعمره، أنا من نسجت من أيامي لباساً لأزين به حياته، لم يكن لملامحي وجود إلا فى وجهه.. لم أرسم بسمتي إلا بين شفتيه.. لن يراني لأنني لا أري نفسي إلا فيه.. تركته لألملم ما بقي من نفسي.

جئت إليك لأخبرك أنني لن أبحث عن ملامحي في زُرقتك كما كنت من قبل .. بل لأعاهدك ألا أتحسسها إلا فى وجهي ومرآتي.. ليت النساء تدرك أن ملامح روحها فى وجهها فقط، أيامها صنعتها.. سعادتها مسئوليتها وحدها.

هذه تقطر ألماً.. لا أدرى من ألوم

قالت:

من منا لا يتوقُ إلى الحب؟! ولم يطف بخياله فى لحظة أن يزوره..

أن ينظم بوجدانه كلمات سيقولها لمن يحب.. كلنا هذا المرء.. لكن من هم من التقوا به.. لمسوا صدقه.. امتلكوا القدرة على أن يصونوه وعاشوا عمراً طويلاً ينهلون من كأسه.

مما أدركته فى حياتي أن كلمات الحب لا حصر لها، الصادق منها صعب المنال، فكيف تدرك أنه صادق تختلط الكلمات بالدموع، الآهات.. ترانيم.. وشوشات.. لمسات ثم بعد ذلك لا يكون إلا رذاذاً كاذباً؛ يتطاير فى هواء واقع بلا لون أو معني.. الحب لا يحتاج إلى الكثير من الكلمات بل يحتاج الرواء.. الصدق.. الأمان.. ثلاث كلمات هى أرقي معاني الحياة.

لا أدرى من أين يأتي الفشل.. أهو القدر.. أم سوء الاختيار أم سوء تصرف أم هو كل ذلك العالم حينها كحبات رمل تبعثرها الرياح.

لا أدرى.. أهـي براءتـي.. التـى جعلتـني أري أن حلمـي بسـيط، ثـم صفعتـني الحيـاة بـأن حلمـي بعيـد المنـال.

تزوجـت زواج صالونـات بفـارق سـن كبـير وهـذه بدايـة خطئـي، واهمـة أنـني سـأجد غايـتي فـى السـعادة، جلدنـي الواقـع بحقائـق كثـيرة، لكـن عنـادي جعلـني أغمـض عينـاي وألتمـس الأعـذار وألبـس ثيـاب القدسـية فـى عـالم غابـت عنـه قدسـية أشـياء كثـيرة.

سـنوات مقاومـة ثـم رفعـت رايـة الاستسـلام، وانسـحبت إلى حيـاة لا تقـل ألمـا.. فالمـرأة المطلَّقـة يـا سـيدي فـى مجتمعنـا مهزومـة نفسـياً مقهـورة اجتماعيـاً؛ تحتـاج إلى يـد رقيقـة قَـلَّ مـا تجدهـا.. أدركـت حينهـا لمَ تفـرُّ النسـاء مـن الطـلاق حتـى لـو كـن يعشـن فـى جحيـم علـىَ الأقـل هـو جحيـم يدركـن لهبـه أمـا هـذا الجحيـم فـلا تـدري المـرأة مـن أيـن سـتأتي عليهـا ألسـنة اللهـب ومـا الـذى سـتلتهمه هـذه النـيران، وهل سـتتركك حتـى تـذرك رمـاداً يتطايـر فـى سمـاء هـى أيضـاً ملتهبة.. جسـد يتلـوي مـن النـيران ولا صـدر يحميـه أو دواء يشـفيه.

لم تتصـور امـرأة أن حياتهـا بعـد الطـلاق سـتكون ورديـة لكـن لمَ تكـون بهـذه القسـوة، أليـس لهـا حـق علـى المجتمـع ماديـاً وَنفسـياً الا تكـون عالـة بل تسـنح لها الفرصة لتحافـظ على كيانها وتبـدأ مـن جديـد، لكـن يـا هـول ما رأيـت؛ رجـال يـرون المطلقة قنطـرة للمـرور أو يريدونهـا اسـتراحة يُفرغـون فيهـا مـا عندهم من

مشاكل ليعودوا إلى سيدات قصورهم أصفياء الذهن مرتاحي الجسد ليواصلوا حياتهم التى يفخرون بها أمام الناس، هى البحيرة التى يصبُّون بها شذرات بحر ليستمر فى هدوئه.

أتيت إليك لأخبرك أني رفضت أن أكون هذه البحيرة لأي رجل وتحملت من أجل ذلك الكثير، ولأسألك كم امرأة تقدر على هذا الدرب العسير.. تكمل فيه المسير ومن لا تقدر ما المصير؟!

رحلت صاحبة الرسالة تاركة لي حيرتي؛ فلا جواب عندي.

وهذه رسالة تحمل تساؤلات احترت فى الإجابة عليها:

يمر العمر يا صديقي بحلوه ومره، لا تعبأ الأيام بما تتركه على ملامح الروح وما تحفره على جدران الجسد، تلهث متلاحقة ونحن وراءها، لا وقت لالتقاط الأنفاس أو لطرح تساؤلات، هذا ترف لم نعرفه.. ماذا نتمنى.. ماذا نعاني.. بما نحلم، كل ذلك ليس فى أجندة حياتنا صفحات له ولا حتى بعضاً من حروف، ننسي أو نتناسى أنفسنا نذوب راضين فيمن حولنا، سنوات تلو سنوات، يكبر الصغير ويقوي ويضعف الكبير ينتظر لكن يطول الانتظار، تمر النفس وتئن الروح تتحسس طريقها تتلفت تبحث عن دفء.. عطاء احتواء لا تجد إلا بعض كلمات مقتضبة وبعض مواقف على عجّل ثم أعراض.. ثم تذمر.

يا صديقي، هل إذا ضحت المرأة بشبابها وتنازلت عن زهرة عمرها لابد لها أن تستمر حتى تواري التراب.

هل الحياة ليس إلا من يأخذ بلا ملل ومن تعطى بلا كلل، ألا للمرأة حق أن تكف عن العطاء وتبدأ فى الحصاد وجني الثمرات؟!.

ألا تجد من يرحم ضعفها.. يقدر احتياجها، يتفهم أنها حين اختارت التضحية كانت فى كامل قوتها وقدرتها؛

لقد استغنت عن مقدرة.

أما حين يمضي العمر وتفعل الأيام فعلتها لا قدرة لها على التنازل لا لشيء إلا لأنها أمست ضعيفة لا تملك ما تتنازل عنه.

ألا يدرك هذا أن أيامها تقول؛ غرست البذور بكامل عنفواني لأجني ثمراتها حين يكتمل ضعفي.. ألا يدرك الرجل حين يطلب منها أن تستمر في العطاء والتنازل أنه يجلدها بسياط من لهيب؛ فلا أقسي من لهيب الكلمات حين يفقد المرء برد الحنان.

ماذا يريد الرجل حينها؟! ألا يدرك أنها ما عادت تملك إلا بعض أيام من عمرها تنتظر انقضاءها.. أحلامها بسيطة .. احتواء ربما يوفره بعض كلمات وجميل لفتات.. يريدها أن تكتفي ببعض لقيمات تقيم ضهراً أفنته هي فيمن قوي ضهره ثم يريد لها الاستمرار.

يا هذا ما عادت لها مقدرة على ذلك؛ عما تتنازل بعد أن رمت زهرة شبابها بل أذابتها في كأس الأيام، لتراها ترتسم على وجوههم ولتروي بها ثنايا أعمارهم.

لِمَ القسوة ممن يأخذ على مَن أعطي حين تبدلت الأيام.

فضعفت ثم اتكأت على آلامها ورحلت حين لم أجد ما أرد به عليها.

وهـذه مـن صديقـة غابـت عنـى كثيرا،يثنـى مـن حولهـا علـى ثباتهـا ،كالطـود هى،لكـن أنـا أخشـى عليهـا الانكسـار ،قالـت (غبـت عنـك كثيرا،لكـن ماغبـت أنـت مـن خاطرى،تغالبنـى الأيـام وأنـا أسـعى جاهـدة ألاتقهرنـى، أُلاطم أمـواج الحياة،تغمرنـى لكـن لا تغرقنـى، أحـرص ألايشـعر مـن حـولى بحريقـي أو أن تؤذيَهـم نيرانـى أهـرب منـك خشـية البـوح فمـا عـاد يريحنى،بـل صـار ينـكأ جرحـي، يجعلـه ينـزف فىصمت.أصارحـك قـد سـئمت الهروب،أتسـاءل فـى حـيرة إلى متى؟!ياصديقـى غلبنـى الحنين إلى ضعفى،أشـتاق إليـه، لمَ تأبى الحيـاة إلا أن أكـون قوية،مـن قـال إنـى قويـة فمـا أنـا إلاَ غصـن تتقاذفـه الريح،يتأرجـح يتشـبس بجـذوره فـى الأرض،روح تواقـة لمـن يهدهدها،يكفكـف دموعها،يحـترم ضعفهـا بـل يهواه،تتـكأ علـه فـى طمأنينـة مـا انـا الا وطـن قتلـه الحنـين الى الـدفء. لا تسـلنى لمَ لا أحياه،فـى عالمنـا لـو أظهـرت المـرأة ضعفهـا انكسـرت ،وَمـاذا يفيـد شـظايا البلـور البريـق إذا مـا تناثـر فـى الطريق؟!مـا أجمـل ضعـف المـرأة ..لكـن متـى حـين تجـد مـن يـرى أن أجمـل مـا فيهـا ضعفها،يأخـذ بيدها،يهمـس فـى أذنهـا لا عليـك أنـا قوتـك وعتـادك ،تجابـه بـه الحيـاة قائلـة.. هـذا فارسـى يحمينـى حتـى مـن نفسـى،تنام مـلء جفونهاعلـى راحتيـه،أدرك أن سـعادة المـرأة أن تطلـق العنـان لضعفهـا تحيـاه مـع مـن يقدره،رائـع أن يـرى النـاس المـرأة كالطـود، لكـن الأروع

أن يكـون لهـا ظـل تسـتظل بـه، تطمئـن أن قوتهـا تسـتمدها ممـن يـدرك ضعفهـا وحـده، ولا أحـد غـيره، يقيـل عثـرات طريقهـا، يتدفـق شـلال حنانـه بـين حناياهـا فتصـير قوتهـا مـن نبـع حنانه.أنـا مـا أردت أن يـرى النـاس ضعفـى يشـفقون علـى منـه، بـل أريـد أن أنتـزع حقـى أن أبـوح بـه لمـن تهفـو إليـه روحـى، أصارحـه أن حنانـه زادى، رجولتـه ردائـى، أترانـى أطمـع مـن الحيـاة بالكثـير.

وهـذه رسـالة مـن امـرأة قالـت إنهـا تحمل همـوم كل النسـاء بين جنبيها:

همسـة فـى أذن كل رجـل: عزيـزي الرجـل عليـك أن تختـار مَـن تريـد، أتريـد وطنـاً تعيـش فيـه؛ يقاسمـك حزنـك قبـل فرحـك، يفكـر معـك، يرسـم بسـمتك، ويمسـح دمعتـك، أم تريـد جاريـه تحـت إمرتـك لا قـدرة لهـا علـى التحـاور والاختـلاف ولا تـدرك إلا طاعـة الأوامـر، ولتـدرك يـا عزيـزي أن لـكل اختيـار تبعاتـه تتحملـه وحـدك فـلا تَشْـك ولا تتذمـر؛ فأنـت مـن نسـجت الخيـط واخـترت الإبـرة، وصنعـت رداء حياتـك، فـلا تطلـب مـن الجاريـة- إن اخترتهـا- رأيـاً أو حضـوراً إلا حضـور العبـد لسـيده، ولا تطلـب مـن الوطـن أن تغـترب عنـه وتعيـش بعيـداً عـن ظلالـه ولا تصنـع لـه سـياجاً؛ فالوطـن يـا عزيـزي لا يسـجن ولا يهجـر كمـا أنـه صلـب لا يُكسـر ولا تضـيره الريـاح ولا تزيـده المحـن إلا شموخـاً، الوطـن هـو كل الحـب يعيـش بـه ولـه، أمـا الجـواري هـل رأيـت عبـداً يعشـق سـيده اللهـم إلا الـذل والحـوج.

عزيـزي الرجـل هـذا هـو الطريـق.. فكـر جيـداً قبـل أن تطـأ بقدميـك أولـه؛ فـكل أول لـه آخـر.

الباب الثاني

كم من قصص تحطمت علـــى صخرة الحياة لأن أحد الطرفين لم يدرك ما عليه ليحافظ على رفيقه .. حين اضطراب المشاعر وتعرضها لرياح هوج.

سهير

قالت: أحلام أسجنها أو تسجنني.. أيامي تتساقط رغماً عني على طرقات عمري.. لا أبغي أن ألملمها..

لمَ فعلتها أنت؟!.. أتقدمها لي مع باقة ورد.. تنثرها على أصداء العمر.. رفضت مراراً أن أكون عصفوراً يتغنى لعمر يترنح بين أروقة الحياة.. لا يبغي إلا نجاة.. لن أكون مجدافاً لشراعٍ يتكسَّر.. يتأرجح بين الأمواج.. رفضت أن أروي قلبي حلماً يترنح لن يبقي منه إلا ظلال باهته على ضفاف الحياة..

آه منك.. إياك أن تذرني.. لا تطرق قلبي ثم تقتله.. لن يرضي بفتات تُلقيه وترحل.. لا لن يرضي.. ولتبحث عن شارع آخر على بوابة الحياة..

قلعتي لن يقوي عليها إلا مارد في حبه.. رقته إعصار يلفني في صمت.. حنانه سهام تستنفر نبضاتي.. تخترق أروقتي تتهاوي بفيضانه كل قلاعي..

هذي يدي.. لا تدعني.. أعبرْ بي خارج حدود الأكوان.. أطلقني على عتبات السحاب.. ولنهرب وراء الحجب بين مدارات الوجدان.. لو تقدر.. اخطفني من نفسي.. أو أجعلها تعانقني في اللامركز.. عبر قارات المشاعر.. أو بين طرقات

الأثير بعيداً عن نمنمات الآهات.. لتأخذني بعيداً عن ضعف يجلدني.. تطويني بين جنباتك.. ترويني أكسيرا يلهبني.. تُطفئ ظمأ يسكن بين ثنايا وجداني.. تنزع خطواتي رغماً عني.. تذهب بي حيث وادٍ يسكنه قلبي.. تركته يرتع في حلم يتيم على رماله.. لو تقدر فك طلاسم نفسي اكسرْ مفاتيح خزانتي، انطلقْ بقلبي في سماوات مشاعرك.. انثره على بُساط عمرك.. إياك أن تقهره باسم الحب.. لا تُشعل بين جنباته الوجد.. لا تؤرق نبضاته بالغدر.. ولتأسره إلى عالم حالم.. غيّبه خارج حدود العمر.. اطوه بين ثنايا العشق لو تقدر.. افعلْ.. لا تستجبْ لرجائي بأن تبعد.

اعذرني لو حاولت الهروب.. لكن إياك أن تدعني أفعلها.. بل أطلق سراح طائري الكسير..

لا تلمني لو قاومت.. بل اقتلعْ عروش مقاومتي.. وليكن حبك شلالاً يغرقني طوفان يجرفني.. طوق نجاة لحلم مقهور، ولتدرك أني لا أريد أن أراني امرأة تبحث عن الحب.. بل يرضيني قلب يأسرني باسم الحب.. قلب يُتقن فنون العشق، يراني نسمة يتلمسها بين أزاهيج العمر..

لو استطعت انسجْ حبك على ما بقي من صفحاتي.. ارسمْ قلبك على جداري، اهزم قهري لنبضاتي.. اغسل آلام عمري بقطرات من ندي قلبك الدافئ.

هيا أقبلْ؛ فقد طال انتظاري.. أنت هو.. نعم هو من رأيته يمتطي فرساً في أحلامي.. مَن هدهد مشاعري.. مَن انتظرته.. فهيا أقبِل.. لا تتمهلْ.

قال:

لمْ تتركي لي خياراً أو بعض حروف غير أني أتمني أن أكون بعض حروف مما تقولين.

قالت:

أتقدر أن تصير مرساي بعد أن أنهكني المسير.. أترضي أن تكون شراعي فى بحر تلاطمني أمواجه، صوتك يدغدغ مشاعري.. يُحيي ثورة قلبي المستكين لسنين.. يلهب وجداني ثم يطفئه بقطرات حنانه، كن لي بلا تراجع.. لا تمل شوقي واحتياجي.. منذ رأيتك وهبتك قلبي وكياني.. لا تدعني أهرب من بين ضلوعك.. اسجنني فى وجدانك.. حاصرني بمشاعرك، ارشفنى قطرة.. قطرة لك مخزون عمر سجين.. وهبت قلبك مفاتيحه.. لك كيان كم أضناه انتظارك.. قلبي يتحسسك.. مشاعري تتلمسك.. أناملي تغوص فى أعماقك.. تلمس نبضاتك، سكنت نفسي على عتبات فؤادك.. تتنفس عطره تقهر حرمانها بفيض عطائك.. لحظات هى عمر الأعمار.. حلمت بها ما أردتها إلا أن تتفجر بصدق رغم ألم نفسي.. رغم الظمأ.. إلا أنها تأبي إلا ما يمس شغاف قلبها.. يهز كيانها.. أنت من فعلت ذلك.. أوقفت خطوات عمري فى مدارك.

أسرت نبضات قلبي؛ تشبَّثْ بخيوطه.. لا تدعه يفر منك، اقرأني.. كما أنا.. شلال بل طوفان لا يُطلقه إلا

طبول الحب في ساحته.. لي نفسٌ تذوب في العطاء.. لمن يطويها تحت جناحه.. يصير لها أرضاً وسماءً.. لي قلب يعشق بلا حدود.. يهوي أسر المحبوب.. إذا رواه حب ينبض بلا جحود.. اقرأني كما أنا.. لي نفسٌ تتشرنق لو ما ينبض قلبها.. تهرب بعيداً إذا لم يهتز وجدانها.. تقتل مشاعرها بقسوة لو اكتشفت أنها أخطأت طريقها..

اقرأني.. كما أنا..

فإن حبي رهيف.. لكن عنيف

قلبي رقيق لكن عنيد.. شوقي غزير.. لكن عفيف..

لو فررت منك لن تجدني.. لو تفلتت مشاعري من بين أناملك لن تقدر أن تلملمها.. لو خسرت قلبي.. لن تسمع حتى ضمة شفتي..

قال:

لو خسرتك خسرت قلبي وليس قلبك وحدك

قال: كوني أنتِ.

قالت: لم أكن يوماً أنا بل الجلاد وهي السجين.

قال: دعكِ من الماضي.

ـ كيف ولا يزال يحيا على أنقاض يومي وغدي أنتظره فيضنيني.

قال: أطلقي سراح طائركِ.. دعيه يحلق.

ـ من أين له بجناحين وسماء تضمه وتحويني.

قال: يا زهرة النرجس.

ـ كيف ولم أعش يوماً لنفسي..

قال: «فجَّرتِ ينبوعاً دفيناً.. يروي عطش السنين.

ـ لِمَ أنت أيقظت مارداً نائماً يرفض همس العاشقين.

قال: لي سنين تثقل كاهلي.

قالت: لو كان العمر بليالي ذبحها الأنين أو بصرخات السنين.. فبين جنباتي ما يُثقل كاهلي.. بل عطاؤك ربيع عمرك.. وحنانك صبا السنين.

قال: ها هو قلبي فارتعي.

ـ أتقدر على قلبي.. تتحمل طفولة عمري.. تقوي على إعصاري السجين.

قال: إذا ما أتي الليل.. ضُميني.. دفّئي قلبي المسكين.

ـ إن لي قلباً يرتجف.. من برودة ليله الحزين.

قال: حديثك نشوة لقلبي.. رواء لروحي.

ـ وأنتِ دفء صوتك.. يفتح أبوابي الغلقي.. يُحي نبضاتي.. يُشجيني .

قال: إياك أن تبتعدي سيأتيك قلبي المجنون.

ـ إذا ما القلب أشقاه الظمي فمرحي بالجنون

قال: لو بَعُدت يوماً فاعذريني. واطمئني.. لن أغيب.. صوتكِ في غفلتي. رسمك في بصمتي

قالت: يوماً لا تزد.. فغياب همسك لحظات.. في عمر قلبي سنين.

* * *

قال: أحبك.. أنت قضية عمري الباقي، حقي في الحب.. هو حقي في الحياة.

قالت: ماذا لو خسرت القضية.. لن أتحمل أن أكون سبب ألمك.

قال: منذ عرفتك لم تكوني ألمي.. بل صرتي بلسمي، لكن أنا لا أملك إلا مشاعري.. ولا زاد لي إلا بعض كلمات متأججة.

قالت: أرقي المشاعر ما ارتدت الإخلاص.. وأعمق الكلمات ما حملت الصدق بين حروفها.. وماذا تُغني الأفعال لو كانت بلا حب.

قال: لكن الكلمات عطاء لا يكفي.

قالت: فرق كبير، أن يقف عطاؤك عند حدود الكلمات.. وأن تُضعِف الحياة بقسوتها قدرتك على العطاء.. أو تحول دونه بعض الوقت.

قال: لن أنتظر حتى أري الندم في عينيك.. لن أسمح أن تنكسر صورتي في عينيك.. أن أخسر نفسي فيكِ.

قالت: خوفك عليّ.. حينها أتشبث بك.. أحيا على رحيق احتوائك.

قال: أنتِ فى حاجة لمن يأخذ بيدك أمام أعاصير الحياة.. يقيل عثراتكِ.. يكفيكِ ما لاقيتِ من محن

قالت: وأنت تفعلها بحبك.. بإحساسك العالي.. بخُلقك الراقي.. بما تمنحه من عمرك ومشاعرك.

قال: لا يا حبيبتي.. هذا لا يرضيني كرجل.. الحب مسئولية وأنا ما تعودت أن أتغافل عن مسئولياتي.

قالت: لذلك.. أنا أحبك.. أعشقك.. لا أريد سواك.

قال: الحب شجرة لو لم نروها.. ذبلت وانزوت.. وما استقامت لأعاصير الحياة.

قالت: أنت ترويها بحنانك.. تظللها بجناحك.. أحبك كما أنت.. أراك أثرى ملوك الأرض.. أنت اختياري.. أتشبث به.. أحيا لأمسح ألمه.

قال: وماذا قدمت أنا لكِ.

قالت: قدمت لي نفسي.. صالحتني عليها.. أحييت نبض قلبي.. منحتني ما لا يُباع ولا يُشترى.. الحب.. الإخلاص.. الصدق.

– إني أتألم لألمك.

– ألمي الحقيقي.. غياب صوتك عن أذني وصورتك عن عيني.. وقلبك من حياتي.

– أحبك.. أتمني لو أحوز الدنيا لأضعها تحت قدميك.

– أنت أحلي ما فى دنياي.. وأثراها.

– يقتلني الخوف من الغد.. وإحساس بالعجز.

– لم ولن تكن فى عينيّ عاجزاً؛ سوف أكره نفسي لو رأيت هذه النبرة فى حديثك.. ماذا لو تزوجتك وأنت ثري.. ثم ضاعت الأموال..

– أحبكِ.. أحيا على دوائك.. أنتِ ترياق حياتي.. نبض قلبي.

– أحبك يا صنو روحي وتوأمها.. أنت حلم سنيني.. لن أدعك تتفلت من بين أناملي.

– ضميني لأنسي العالم على صدرك.

– أنت لي كل العالم.. لا أري فيه سواك.

قال: أهذا قرارك الأخير.. أرجوكِ.. لازلت أحبكِ.

قالت: الحب أكبر من أن يكون مجرد كلمة.. لم يعد هناك إلا الفراق.. حان وقت الرحيل..

– ألا ترفقين بقلبي ؟

– وأين قلبي.. نفسي وروحي.. من كل ما فعلت.. أو من كل ما لم تفعل.

– سامحيني، إنها الظروف.

– عجيب أمرك.. منذ التقينا وظروفك لا تطرق إلا بابي.. فأنا أراك تُعطي كل من حولك كل شيء.. فى حين تضن علىّ بالقليل الذى يسعدني.. لو أردت أن تفعل لفعلت.. لكنك ما أردت.. أرجوك دعني لشأني كفاني ألم.

– أنا ما زلت أحبكِ.

– ومن قال إنك أحببتني.. من أحب وتألم وأعطي وصبر هو أنا.

– ماذا تقصدين ؟!

– أقصد أنه لم يكن حباً.. بل كان حالة، احتياج.. جذوة انطفأت بفعل رياح الأيام.

– حرام عليك.. أترينني ظالماً قاسياً لهذه الدرجة ؟!

– وما فعلته بي.. ألا يشعرك بالظلم ؟!.. منحتك حبي، وهبتك عصارة قلبي.. كياني.. ضحيت لأجلك بكل ثمين.. وما أردت منك إلا الاحتواء.. الأمان فهل فعلت ؟

– وبِمَ تسمي أوقاتنا سوياَ.. ألا تشعرين أنها عصارة قلبي.

– أبعد هذه السنين.. يكون زادي بعض أشواق وكلمات.. كم افتقدتك ولم أجدك.. كم ألمحت إليك باحتياجي لك فتغافلت.. كان تجاهلك يجلدني.. ظللت أصبر.. وأصبر.. حتى نفد معين صبري.. لا تزعم أنها ظروف.. لو لمست خوفك علىّ.. رغبتك فى احتوائي.. لكفاني هذا الإحساس للأسف لم أجد منك إلا الأعذار..

– وحبنا؟

– انهار كجبل جليد.. لم يبق منه إلا بعض قطرات.

– وقلبي.. وقلبك؟

– قلبك سينساني.. أو قد نساني فهو لم يعش نبض الحب.. أما قلبي فأنا كفيلة به.. لي كبرياء أعلى من صوت نبضه.. أقوي من ألمه.

– والحب؟

– الحب قضية.. إما أن تحياها بصدق وتراها بعدل.. أو سنخسرها عن جهل أو تجاهل.. ولا عزاء للمحبين.

قال: إما أن تعيشي معى فى القفص مكسورة الجناح، تغني حين أغني، وترفضين البسمة حين ينتابني ذلك.. أنا مصدر سعادتك وألمك، أو ترين منى أي شىء غير العصفور الذى عشقتيه، ولكِ أن تختاري أن تحي بجواري أحصي أنفاسك عليكِ أو تموت بين حناياكِ الزهرات.

قالت: أنت لست من عشقت ولست من يهب الحياة بل أنت تمزق الزهرة رويداً.. رويداً تريدها؛ بلا أوراق بل ولا حتى ساق.

قال: أسف، أسألكِ فرصة أخيرة.

قالت: ما أسوء أن تريق دماء الحب على بلاط الإخلاص وتكتفي بالاعتذار، إذا كان المرء كاذباً، مخادعاً، خائناً لمن أخلصوا له فماذا يبقي له من القيم ليحيا بها فهو ليس إلا روحاً خاوية فكم من ثياب براقة تخفي نفوساً عفنة.

قال: لكن أنا أحببتك ولازلت أحبك.

قالت: إذا عُرض علينا الحب وأدرنا له ظهورنا فلا نلوم إلا أنفسنا، ثم هناك فرق كبير أن تكون مشاعرك غاية أو مجرد وسيلة لشيء آخر الأولي وصف من الرومانسية والأخرى درب من الوصولية وأنت لم تحب قط، أن تحلق فى سماء الحب لا تكفيك بعض كلمات ملتهبة، بل الأهم الصدق فيها وبعد ذلك عزيمتك لإنجاح حبك هى الأرض التى ترتكز عليها.

قال: إنما هى الحياة.

قالت: كلنا ندور مع رحايا الحياة فمنا مَن تطحنه ومنا مَن يصير من رحاياها ومنا من يغالبها فيغلبها.

قال: أتظنين أن باستطاعتك الحياة بدوني؟!

قالت: ولمَ لا، نفوس البشر كالبحر لا ندري ما تلقي أمواجه ليلَ نهار، كل يوم يولد في الحياة أمل جديد سرعان ما يُوأد أو ينتحر على أعتاب قسوتها وشعاع ينبغي أن ينتشر سناه ثم يتوه في دربها ويتناثر مع أول خطواته رغم ذلك، لا يسأم ويعاود المسير مع بزوغ فجر جديد، فلا حياة بلا أمل ولا أنفاس بلا روح مقاومته لعل الغد يحمل لي ما أريد.. ربما أبحر نحو المرفأ.

قال: الأمواج عاتية وضعفك يسبقك.

قالت: هذا عندما كنت أقول؛ لو لم يبق من الدنيا إلا بسمه لرسمتها على شفتيك أو شمعة لأضاءت بها ليلك، أما الآن فإني أري وجوها كثيرة سأرسم لها البسمة وشمعتي سأضئ بها طريقي.

قال: لا زلت أحبك.

قالت: ليس الحب أن تنهل من ينبوعي حتى ترتوي روحك وتورق أشجارك وتطرح ثمارها ولا عطاء منك إلا بعض حروف وأعذار، لقد مللتك، ألا تدرك؟ فلتذهب بلا عودة طريقك غير طريقي.

قالت: الحب الصادق قبس من الله لا يقبل المساومة وعهد الله ميثاق غليظ لا يخضع للظروف والأهواء.

قال: أري وجهي على صفحاتك، صوتك لا يزال يداعب أذني، قلبك يحاكي قلبي فماذا حدث.

قالت: من يروي الأرض بماء مالح لا ينتظر أن تمنحه ثماراً يانعة، للأسف بعض الرجال لا يرون المرأة إلا نهراً فياضاً يروي ظمأه غير مكترث بما يطرأ على النهر من لطمات الحياة، وينسي أو يتناسى أن المرأة شجرة لو رواها احتوته بظلها ولو تركها لن تصمد للأعاصير، تذبل تنزوي لا يبقي منها إلا ساق عارية.

قال: المرأة خلقت لتسعد الرجل ولن تستطيع الحياة بدونه فهي بضعٌ منه.

قالت: ولمَ خلق الرجل أليتملك المرأة ويجعلها جاريته، أم ليسَعدها أيضاً، هل يستطيع الكل العيش بدون بضع منه.

قال: كفاكِ فلسفة لن تعينك.. الطريق وعر.

قالت: بل لكل منا قوة جبارة تكمن بداخله تنتظر لحظة الانطلاق لو خرجت لن يمنعها شيء، وغالباً ما تكون لحظة صدق مع النفس، وكل جميل بداخلنا

حياتـه مسـئوليتنا وحدنـا وهـو لا يمـوت بـل ينتظـر منـا البحـث عنـه وقـد التقيتـه ولـن أتنـازل عنـه.

قال: وماذا أدركتِ أيضاً.

قالـت: بعـض الرجـال لا يصلـح لهـم إلا أن ترويهـم الحـب قطـرات حتـى يظـل متلهفـاً لقطـرة مـاء، منحتـك حـبي فقتلتـه.. قلـبي فذبحتـه.. عمـري فخيرتـني إمـا أن تمتلكه أو تلقـي بـه علـى قارعـة الطريـق فمـاذا تريـد منـى.

قال: أريدك.

قالـت: صنـف مـن الرجـال بـين اثنتـين امـرأة تـدرك ضعفـه فتمتلكـه، وامـرأة تحبـه فيمتلكهـا أو هكـذا يظـن، وأنـا لـن أكـون تمثـالاً أجـوف تصنعـه كمـا تحـب، لـن أتنـازل عـن نفسـي أو أتركهـا تـذوب وتتلاشـي حتـى تراهـا كمـا تريـد أو كمـا رسمتهـا، لم يكـن ذلـك عهـدك لـي، فالرجـل إن لم يملـك كلمتـه يحفـظ عهـده فمـاذا يبقـي لـه؟ شـارب ولحيـة.

قال: أنتِ امرأة وجمال المرأة فى ضعفها.

قالـت: نعـم لـن أتنـازل عـن كونـي امـرأة، لكـن كمـا أري أن الرجـل إذا تملكتـه امـرأة فقـد تاهـت منـه نفسـه منـذ زمـن، أري أن جمـال المـرأة ليـس فـى ضعفهـا بـل فـى اعتزازهـا بذاتهـا فكـم مـن قـرارات لرجـال كان وراءهـا

امـرأة، الحقيقـة التـى لا يراهـا الكثـير أن لـكل مـن الرجـل والمـرأة كيانـه ولـن تسـتقيم الحيـاة لـو طغـي طرفاً علـى الآخـر ليلغـي كيانـه.

قال: إلى ماذا تسعين؟! السيطرة علىّ.

قالـت: لـو رأت المـرأة حقهـا فـى فـرض سـيطرتها علـى الرجـل ورضـي هـو بذلـك فـلا هـو رجـل ولا هـى امـرأة، الرجـل الـذى تمتلكـه امـرأة تاهـت منـه نفسـه.. أنـا لا يعجبـني رجـل تسـلب امـرأة رجولتـه ولا أقبـل أن يمحـو رجـل كيانـي يجعلـني صـورة باهتـة بـلا ملامـح باسـم الحـب ولتبحـث عـن ذلـك عنـد غـيري .. أنـا أريـد حباً والحـب ثـراء وعطـاء، وأنـت تريـد تملـك والتملـك قهـر واسـتنزاف.

قال: هل الطلاق قرارِكِ الأخير.. احذري عاقبته.

قالت: الزواج الثاني مشروع فاشل للمرأة.. رابح للرجل يغلقه متى يشاء، حين يزهد ربحه لكن أنا قررت أن أسبق زهدك فالرجل الذى لا يعدل ليس لأنه غير قادر على العدل بل هو لا ينوي العدل والمرأة تصبر وتصبر وإن لم تجد مقابل تفر ولو إلى النار.

قال: إذن أنت ترضين بالفشل.

قالت: حاولت مداواتك بالحب.. كنت كالذي سمع مستغيثاً داخل دار تشتعل بها النيران فهبَّ لنجدته فهو إما ناج هو المستغيث أو هالك معه أو يخرج وبه بعض الجروح التى ربما تداويها الأيام كما فعلت.

قال: فكري جيداً.

قالت: بل أترك لك أن تفكر أنت، إذا تسببت الرياح فى إظهار بعض جسدك ينتابك الخجل وتسرع بلم شمل نفسك وتغطيه جسدك، لكن إذا أتت الرياح بما لا تشتهي السفن وعرَّت مكنون ذاتك.. كشفت الأعاصير ما تجهد نفسك لإخفائه حتى عن عيونك كيف بك حينها وأنت تطلع على كوامن ذاتك التى أخفيتها

هـل حينهـا ستحاسـب نفسـك هـل تمقـت فعلهـا.. أم تتجاهـل وتسـرع خطواتـك فـى طريقـك حتـى تلقـي امـرأة أخـرى منكسـرة.. تبـدأ معهـا طريقـاً جديـداً.

قال: هل انتهيتي من التفكير؟

قالت:

- قد أعياني التفكير.

- وما هو قرارك؟

- لم أفكر لأتخذ قرار، فلم أتعود من الحياة الكثير من الخيارات.

- بل أنتِ من تصنعي سياجا حولك.

- هذا ما كنت أفكر فيه.

- أخيرًا قررتي كسر القيود، تأخرتي كثيرًا.

- بل أفكر في أمر آخر.

- وما هو؟

- متى يدرك المرء مشاعر من هو قريب منه ويفهمه بدون كلام بل بنظرة عينيه وتلاحق أنفاسه، متى يكون الذوبان، يصيرا روحًا واحدة في جسدين.

- أكيد لو هذا الآخر يبادله نفس المشاعر.

- هل يخطئ المرء مشاعره ومشاعر الآخر؟

– لا يا سيدتي، ربما يقاومها أو يتغافل عنها أو حتى يهرب منها، لكن يدركها ويحيا ألمها.

– وماذا عن الآخر؟ أيدركه حقًا أم يراه كما يتمنى، أتحجب رغبته هذه بعض الملامح من شخصيته؟

– ربما شيء من هذا.

– حينها لم ينضج الحب بعد.

– عن أي حب تتحدثين؟

– حبهما.

– من هما؟

– من لم تتوحد بوصلتهما، إذا اختلفت الاتجاهات لن يكون هناك نقطة للالتقاء، حينها إما أنه لم يكن حب أو أنه يم يجد دربًا يأوي إليه.

– عزيزتي أنا أسألك عني وعنكِ، فتأخذيني إلى درب غير واضح المعالم سيدتي أنتِ تهربين من اتخاذ القرار.

– أتعلم ماذا تريد المرأة في حياتها؟.

– أكيد الحب، لن تستطيع المرأة أن تعيش بدون الحب.

– لا يا سيدي، المرأة تريد الأمان، والأمان لن توفره إلا أن تكون مع من تحب، أن تنام ملء جفونها واثقة أن

عينًا ما لا يغمض لها جفن خوفًا عليها، إنها مهما كانت أعاصير الحياة فهناك من سيأخذ بيدها، أما ألا يوفر الحب ذلك لها فماذا يبقى؟، بعض سويعات لهف وشوق وهي تتلفت حولها خشية أن تدركها، بربك أين السعادة في ذلك؟!.

– أنت تصعبين الأمر عليّ وعليكِ.

– أعتذر إليك يا سيدي، إني أتنازل عن الكثير لأجل من أحب لكن لا أقبل أن أتخفى بحبي، أن أتلصص قربي منه، أسرق لحظاتي معه، أنا لا أرفض أن تكون لحظات بل أرفض إنكارها مني ومنه قبل اخفاءها عن عيون البشر، يا سيدي من يتخفى في اقتناص حقه من السعادة والحب ليس له أي حق فيه، المرء لا يخفى إلا ما ينكره من نفسه ويدرك إنكار الناس له.

– أنا ما رأيتها هكذا.

– أنا لي قناعاتي، المرء الذي لا يملك القدرة والشجاعة أن يدافع عن حقه ويتمسك به فلا حق له فيه وسوف يلقيه على قارعة الطريق عند أول صدام بالواقع الذي لا يقدر أن يواجهه.

– ولماذا تتوقعي الأسوء؟.

– لأنـي لا أحـب أن أرى نفسـي قـد أخطـأت في مشـاعري ولا أحـب أن أضـع مـن هـو قريـب مـني في اختيـار أنـا سأخسـر فيـه بالتأكيـد.

قالت: فى البدء كنت أنت.. ثم كانت الحكاية

لو تسمح لي أن أنثر حروفي على أذنيك

بربك لا تستغرب كلماتي.. تنهرني

هذا خريف الكلمات.. مضى الربيع بلفتاته

أرى علامات الاستفهام على جفنيك

أرجوك لا تغمض عينيك

من أين بنسيج عباراتي

نظراتك مدادي وفرشاتي

* * *

قال: لو تغفري لي

ترحمى خطواتي فى طريق اعتذاري

لن أغفر لعقلي غيابه

أن يعشقك فى صمت مأسور

ولا يتسلق هذي الأسوار

أن يهدر لحظات سحرية

تحوي نبضات الحياة

أتغفرى طفولة أفكاره.. هب أنكِ تغفريها

أيُسكتُ ذلك فى شريانه الآه

* * *

قالت: رغما عنى

تصرخ الحروف بين ثنايا كلماتي

بضع سنين أو أكثر.. أتلظي بصمت يلهبني

والآن تمنيت أن أصرخ أسحق أفكاري

أنزع عقلي البالي

لكى تطهره بيديك

أمنح فؤادي جناحين ليحلق فى عالمك الخالي

يرسم أنشودة حب يتغناها عالمنا الحالي

لو استرجع سنواتي

أبدل أثواب خواطري

بأخرى من نسج أناملك

أبدد أوهاماً قهرية

سجنت فى قلبي نجواه

* * *

قـال: الآن أدركـت، أنـه لا يكفـى.. العشـق بعقل مبتـور الوجدان

لن يطلق قلباً ملهوفاً.. أن يروي الحب أزماناً

ما أقسى أفكار أسرتني

مخافة قطف شجيراتك

حبستني أن أرشف هاتيك الأزهار

بثريات من ومض نجومك

أنثر بين يديك اعتذاري

أنت قرأت كتابي أجمعه

حين لم أبصر صفحاته

أدركتِ صحرائي جردا

وأنا صاد أخشي بلَّ شفتيه

فى البدء كانت السفينة.. وكانت الصحراء

ضلت السفينة.. خاضت الرمال

وآتي الربان بعزمه قاد السفينة

وكانت البداية.. كانت الحياة

كنت وطني الذى أبحث عنه لأنشر كلماتي

فى البدء كنت أنتِ.. ثم كانت الحكاية

قالت: كلما قرأتك

أحست نفسي بالكبرياء

تتزاحم الأبيات فى أوراقي

ولا زالت تحبو كلماتي على بساط وريقاتك

تبحث بين ألف لغة عن حروف تليق بهاماتك

تعْبر مكنون سكْناتك

كلما أبحرت فى أفاقك

لمست بأناملي خطواتك

أبصرت بحراً عميقاً بين عباراتي وتعبيراتك

فى البدء كنت أنت.. ثم كانت الحكاية

* * *

وأسدل الستار على رجل وامرأة كانا البداية والحكاية على مسرح الحياة

الكاتبة فى سطور

سهير عوض الجارحي

عضو اتحاد كتاب مصر من سنة ٢٠٠٥

صدر لها:

- طائر الحب مجموعة قصصية
- حنان وحرمان رواية
- قلوب وأقنعة رواية
- يوميات من حياة السندباد
- تأخر زواج الشباب الأسباب والحلول
- تناغم الحلم والواقع
- قلوب لا تعرف الحب مجموعة قصصية

وللأطفال:

- رحلات سمسم
- حكايات عم عثمان
- مملكة النمل

وتحت الطبع

- عاش الملك